

التطور التاريخي لمفهوم النص: (دراسة نقدية إبستمولوجية)
Historical development of the concept of text:
(Epistemological critical study)

د. الشيخ البار *

تاريخ النشر: 2020 / 08 / 01	تاريخ القبول: 2020/ 07/ 10	تاريخ الإرسال: 2020 / 06/ 16
ملخص: يتناول هذا البحث موضوع التطور التاريخي لمفهوم النص من خلال تتبع مخاض ولادة هذا المفهوم ومراحل تطوره، بدء من أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ حتى جوليا اكريستيفا رائدة التيار التفكيكي السيميولوجي اليوم، وقد حاولت أن تكون دراستي هذه جامعة بين المنحيين النقدي والإبستمولوجي، مع أن المنحى النقدي قد يغلب عليها أحيانا، وقد استطعت من خلال هذا البحث أن أكتشف أهم مظاهر القطيعة المعرفية التي استطاعت الرؤية النقدية المعاصرة لمفهوم النص أن تحدثها مع التصور التراثي للنص، وإنني لعلني يقين من أن هذه الدراسة قد لا تصل لكل الغايات التي أسعى إليها، حسبي أن تبقى محاولة للوقوف على المسار التاريخي لهذا المفهوم.		
الكلمات المفتاحية: التطور التاريخي؛ نظرية النص؛ نقدية؛ إبستمولوجيا؛ الرؤية النقدية.		
Summary : This research deals with the topic of the historical development of the concept of the text through tracing the beginnings of this concept and the stages of its development, starting from Abu Uthman Omar bin Bahr Al-Jahiz until Julia Acrisiteva who is the pioneer of the semiotic thinking stream nowadays. and i have tried in this study to sum between the critical and epistemological curves, although the critical curve may overcome. and i discovered through this research The most important manifestations of the epistemic rupture that faces the contemporary critical view of the concept of the text that happened to it with the traditional perception of the text, and I am sure that this study may not reach all the goals that i seek from it. however, it remains an attempt to find the historical path of this complex concept.		
Keywords : Historical development; text theory; monetary; Epistemology; monetary vision.		

مقدمة:

قد يبدو موضوع هذا البحث محتاجا للتسويق المنهجي، مادام أنه يتناول نظرية من أكثر نظريات العلوم الإنسانية تشعبا، وهي نظرية النص بكل حمولاتها الفلسفية والنقدية، وهو ما يفرض علي أن أحتج للعنوان احتجاجا ينهض على فكرة ترى في الموضوع محاولة للتوفيق بين مختلف المقاربات الفلسفية والنقدية التي حاولت استكناه مفهوم النص قديما وحديثا، نظرا لما في ذلك من مصالحة ضرورية بين الحداثة والتقليد، وبالرغم من قناعتي بأنني لست أول تناول مفهوم النص إلا أن هذا الاعتراف لا يحرمني من شرف كوني أول من حاول رصد التطور التاريخي لمفهوم النص نقديا وإبستمولوجيا، وقد كنت مدينا في هذا البحث لمؤلفات الفيلسوف والناقد الفرنسي رولان بارت التي استطعت من خلالها أن أتعرف القطيعة المعرفية التي أحدثها التيار البنيوي مطلع القرن العشرين مع مختلف التصورات السائدة لمفهوم النص، كما أن ضميرنا العلمي يفرض علينا أيضا الإقرار بحجم استفادتي الكبيرة من مؤلفات الناقدة البلغارية جوليا كريستيفا فبفضلها استطعت وضع اليد على مظاهر التباين المنهجي والاختلاف المعرفي بين الرؤيتين البنيوية والتفكيكية في نظرتيهما للنص.

وقد انطلقت في هذه الدراسة من بعض الفروض التي مثلت المعالم الكبرى للرؤية المنهجية الناعمة لبحثنا هذا، تنبني هذه الرؤية على دعامين، إحداهما تاريخية: ترصد المسار التاريخي لمفهوم النص، يمكن أن نصوغها على شكل التساؤل التالي: ماهي الخطوات التي قطعها النص في رحلته من أبي عثمان الجاحظ في القرن الثاني إلى أن وصل إلى أحضان التيار التفكيكي اليوم؟، أما الدعامة الثانية فإنها نقدية صرفة تتساءل عن طبيعة التطور النقدي الصرف لمفهوم النص؟، وبما أنه هذه الدراسة أخذت على نفسها مهمة تقديم كل التصورات والرؤى المرتبطة بمفهوم النص قديما وحديثا فإن هذا يستوجب مني منهجيا أن أسعى للوقوف عند أهم الأسس التي يفترض أنها تخدم هذا البحث وتأسسه نظريا وعلميا، من خلال مايلي:

1. الجذور التاريخية لنظرية النص:

1.1. المعاني المعجمية، والقضايا المصطلحية المتعلقة بمفهوم النص:

تقتضي البداية المنهجية لدراسة مفهوم النص أن أستهل بالشق المعجمي، باعتباره الطريق الأنسب لدخول الموضوع، معتمدا في بيان أبرز المعاني المعجمية لكلمة: (النص) على معجمين من أشهر المعاجم العربية، استطاع كل منهما أن يقدم لنا إضاءة معرفية عن الجانب المعجمي المتعلق بكلمة النص، ينتهي الأول منهما للقرن الثامن للهجرة، وهو القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي، إذ يقول في سياق حديثه عن مادة نصص: "نص الحديث إليه رفعه، وناقته: استقصى أقصى ما عندها من السير، والشئ: حركه، ومنه: فلان ينص أنفه غضبا، وهو نصاص الأنف، والمتاع: جعل بعضه فوق بعض، وفلانا: استقصى مسأله عن الشئ، والعروس: أقعدها عن المنصة، بالكسر، وهي ما ترفع

عليه، فانتصت، والشيء: أظهره، والشواء ينص نصيصا: صوت على النار، والقدر: غلت، والمنصة، بالفتح: الحجلة من نص المتاع، والنص: الإسناد إلى الرئيس الأكبر، والتوقيف والتعيين على شيء ما، وسير نص ونصيص: جد رفيع، وإذا بلغ النساء نص الحقاق، أو الحقائق، فالعصبة أولى، أي: بلغن الغاية التي عقلن فيها، أو قدرن فيها على الحقاق، وهو الخصام، أو حوق فيمن، فقال كل من الأولياء: أنا أحق، أو استعارة من حقاق الإبل، أي: انتهى صغرهن، ونصيص القوم: عددهم، والنصة: العصفورة، وبالضم: الخصلة من الشعر، أو الشعر الذي يقع على وجهها من مقدم رأسها، وحية نصناص: كثيرة الحركة، ونصص غريمه وناصه: استقصى عليه، وناقشه، وانتص: انقبض، وانتصب، وارتفع، ونصنصه: حركه، وقلقله، والبعر: أثبت ركبته في الأرض وتحرك للنهوض.¹، أما الإمام ابن منظور فإنه قد تناول في "لسان العرب" مادة "نصص" بشيء من الإطالة، مما يفرض علينا أن نتعامل مع ما أورده عنها تعاملًا انتقائيًا، إذ يقول: "نصص: النص: رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا رفعه، وكل ما أظهر، فقد نص، وقال عمرو ابن دينار: ما رأيت رجلا أنص للحديث من الزهري، أي أرفع له وأسند، يقال: نص الحديث إلى فلان أي رفعه، وكذلك نصصته إليه، ونصت الطلبة جيدها: رفعتها، ووضع على المنصة أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور، والمنصة: ما تظهر عليه العروس لترى، وقد نصها وانتصت هي، والمماشطة تنص العروس فتقعدها على المنصة، وهي تنتص عليها لترى من بين النساء، وفي حديث عبد الله ابن زمة: أنه تزوج بنت السائب، فلما نصت لتهدى إليه طلقها، أي أقعدت على المنصة، وهي بالكسر، سرير العروس، وقيل: هي بفتح الميم: الحجلة عليها، من قولهم نصصت المتاع: جعلت بعضه على بعض، وكل شيء أظهرته فقد نصصته، والمنصة: الثياب المرفعة والفرش الموطئة، ونص المتاع نصا: جعل بعضه على بعض، ونص الدابة ينصها نصا رفعها في السير، وكذلك الناقة، وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم حين دفع من عرفات سار العنق، فإذا وجد فجوة نص، أي رفع ناقته في السير، وقد نصصت ناقتي: رفعتها في السير، وفي الحديث أن أم سلمة قالت لعائشة، رضي الله عنهما: ما كنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك ببعض الفلوات، ناصة قلوصلك من منهل إلى آخر؟، أي رافعة لها في السير، قال الأزهري: النص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها، ويقال نصصت الشيء حركته، وفي حديث أبي بكر حين دخل عليه عمر رضي الله عنهما وهو ينصص لسانه، ويقول: هذا أوردني الموارد، وروي عن كعب أنه قال: يقول الجبار: احذروني فإني لا أناص عبدا إلا عذبتة، أي: لا أستقصي عليه في السؤال والحساب، وفي حديث هرقل: ينصهم، أي يستخرج رأيهم ويظهره، ومنه قول الفقهاء: نص القرآن ونص السنة، أي ما دل ظاهر

¹ - مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط تحقيق: محمد نعيم العرقوسي، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: 8، 2005 م، مادة: نصص.

لفظهما عليه من الأحكام ..² وما دام أن الشق المعجمي عند الإمامين الفيروز آبادي وابن منظور بهذه الدرجة من الوضوح، فيجدر بنا أن نشفع ما أوردها حول مادة نصص بما يتحفنا به الإمام الزمخشري في معجمه "أساس البلاغة"، حيث حاول أن يفرق بين المعنيين الحقيقي، والمجازي للنص، زاعما أن الدلالة المعجمية للنص تشمل الجانبين الحقيقي والمجازي معاً إذ يرى أن من أهم مظاهر التوظيف المجازي للكلمة استخدامها بمعنى القول والحديث، وقد يكون من أمثلة ذلك العبارة السائرة: (فنص الحديث إلى أهله، فإن الوثيقة في نصه³)، وبناء على هذه المعطيات المعجمية يتضح لنا أن كلمة (النص) تتميز بكونها مزدوجة الاستخدام، إذ تشمل المعاني الحسية، والمعنوية، ولعل بمقدورنا إيجاد مرجع معجمي بديل، نجده عند صاحب (المعجم الوسيط)، يعرف فيه النص بأنه: "صبغة الكلام الأصلية التي وردت عن المؤلف، أو هو ما لا يحتمل سوى معنى واحداً، أو هو ما لا يحتمل التأويل، ومنه قولهم: لا اجتهاد مع النص، والنص عند الأصوليين: الكتاب و السنة"،⁴ فهنا يكاد يتطابق مع رأي ابن منظور السابق القائل: بأن نص القرآن والسنة هو ما دل ظاهرهما عليه من الأحكام، وإذا أردنا أن نلقي نظرة واعية على مضامين التعريفات السابقة، فالأمر يقودنا للخروج بالنتائج التالية:

أ- أن جل التعريفات المعجمية السابقة تجمع على الأصول المعجمية لكلمة النص، من حيث تحديد الماضي منها وحركة عين مضارعها، ومصدرها.

ب- أن ابن منظور يكاد يحصر المعاني المعجمية للنص في (الرفع والظهور والتحريك)، وهو ما يقودني لأن أقرب حقيقة هامة مفادها: أنه يكاد يتطابق مع المعاني المعجمية التي يقدمها صاحب أساس البلاغة، والقائلة بازدواجية المعنى المعجمي للنص، متمثلة في قدرته على الجمع بين المعاني الحسية والمعنوية.

ج - أن صاحب القاموس يكاد أيضاً يحصر المعاني المعجمية للنص في (الرفع بوجهيه، الحقيقي والمجازي، وبلوغ القصد والغاية، والحركة بمعانيها المتعددة، والصوت، والتوقيف، والتعيين)، وهو بهذا يكون قد حاول استقصاء أهم المعاني المعجمية للكلمة.

وبناء على ما تقدم فقد صار بمقدورنا أن نجمل أهم المعاني المعجمية لكلمة النص، إجمالاً يتمثل فيما يلي:

² - ابن منظور، لسان العرب، منشورات: دار صادق، بيروت، ط: 3، 1414هـ، ج: 7، مادة: نصص.

³ - الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت، 1994م، مادة نصص، 135، 136.

⁴ - إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، د ت، ص: 926.

- 1 - الرفع: بمعناه الحسي: ومنه نص العروس أي أقعدها على المنصة، أو بمعانيه غير الحسية ومنها نص الحديث: أي رفعه لقائله.
 - 2 - بلوغ الغاية ومنتى القصد: ومنه نص ناقته: عندما يستخرج أقصى طاقتها في السير ونص فلانا: استقصاه عن مسألته.
 - 3 - الحركة: في تحق يقاها المتعددة، سواء كانت جسمانية: ومنها نص فلان أنفه: أي حركه، أو كانت غليانا واضطرابا مثل نصت القدر عندما تغلي.
 - 4 - الظهور بكل معانيه: ومنه نص الشيء عندما يظهره، وهذا التعميم ما قصده ابن منظور بقوله: (وكل ما أظهر: فقد نص)، وتشمل هذه المعاني أيضا: الصوت ومنه نص الشواء نصا ونصيصا: عندما يصوت على النار، وإذا كانت هذه هي أهم المعاني المعجمية التي تطرق لها الدرس التراثي، وأوردها عن كلمة: النص، فيحق لنا أن نتساءل عن أهم الدلالات المصطلحية التي تعنيها هذه الكلمة وهو أمر يحوجنا لأن نتوقف عند المسلمات الآتية:
- أ. أن من أهم ما تعنيه دلالة "النص": الدلالة الظاهرة غير القابلة للتأويل: ومنه نص القرآن والسنة: أي دالتهما الظاهرة القطعية غير المحتملة للتأويل، وهذا ما يحيلنا لبعض المعاني المعجمية الغابرة من قبيل (الظهور والتعيين والتوقيف).
- ب. أن دلالة "النص" قد تميزت بأمر هام هو: أن دائرة تعاطيها كانت محدودة للغاية، نظرا لوجود نزعة انتقائية في استخدامها: تسعى لحصرها وربطها بالسياق الديني المقدس، ممثلا في القرآن العظيم، والسنة الشريفة، وهذا ما يفسر لنا كون هذا اللفظ لم ينل هويته المصطلحية إلا من خلال مواكبته للنصوص الدينية المقدسة التي استفردت بهذا المصطلح برهة من الزمن.
- ج. أنه يمكننا اعتمادا على استقرارنا الخاص أن نرجع الجذور الأولى لظهور مصطلح النص للقرن الهجري الأول، وهو نفس الاستقرار الذي يسمح لنا بالقول بأن مصطلح النص مدين في وجوده وظهوره لوجود نزعة دينية، تسعى لتحديد معنى النص مصطلحيا، خدمة لأغراض دينية محضة، وبناء على هذا الوعي المصطلحي المستظل بالظلال الدينية فإن شمولية النص وعمومتيه على المستوى المعجمي تقابلها خصوصيته وضيق مجاله على المستوى المصطلحي، مما يستدعي مني مجددا التأكيد على مضمون الاستقرار السابق القائل: بأن مصطلح النص لم يبدأ تداوله بشكل عملي إلا مع حركة التدوين في القرن الهجري الأول في خضم ظهور وعي ديني بضرورة جمع القرآن العظيم، وحفظ السنة الشريفة باعتبارهما: نصين مقدسين يمثلان مصدري التشريع والمرجعية الدينية الجامعة للأمة، وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن عملية الجمع والتدوين هذه كانت تعبر عن وعي ثقافي، يرتفع بمفهوم

النصية عن الطور الشفوي المرتكز على الحفظ والاستظهار المعرضين للضياع والنسيان إلى الطور الكتابي المدون، مع أنها قائمة على دوافع عقدية محضة، ومن هذا المنطلق أبان لنا أبو عثمان الجاحظ رؤيته القائلة: بأن الكتابة أهم مقوم من مقومات الوجود الحضاري، إذ يقول: "ولولا الكتب المدونة، والأخبار المخلدة، والحكم المخطوطة، التي تحصن الحساب، وغير الحساب، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذاكرة"⁵، وبهذا يتضح لنا كيف أن النشأة المصطلحية للنص كانت نشأة دينية بامتياز، تكاد تحصر مصطلح (النص) في الكتاب والسنة، ولعل هذا ما عبر أبو هلال العسكري بقوله: في سياق حديثه عن آليات فهم القرآن والسنة، إذ يقول: قال الفقهاء: الاجتهاد: بذل المجهود في حكم الحادثة من النص، لا بظاھر ولا فحواه، ولذلك قال معاذ: أجتهد فيما لا نص فيه من الكتاب والسنة⁶، غير أن حركة الزمن الدائبة جعلت هذا المشروع يفتح شيئا فشيئا، وكان من نتائج انفتاحه: توسيع الدلالة المصطلحية للنص، ليشمل مع النصوص الدينية الصرفة: الكتاب والسنة، النصوص ذات الصلة بهما سواء كانت: فقهية، أو لغوية، وحتى شعرية، مسوغين ذلك بأن نقاء النص الديني يستدعي المحافظة على اللسان العربي.

2.1 الرؤية النقدية التراثية لمفهوم النص:

إن أول حقيقة يجب الانطلاق منها ونحن بصدد تحديد مفهوم النص في التراث النقدي هي أن النقاد القدماء لم يعوا مفهوم النص وعيا إجماعا، متفقا عليه، وهو أمر عائد في الأساس لاختلاف فهمهم له أكثر منه عجزا معرفيا، أو ضعفا في الإدراك، مما يفرض علينا الأخذ بمبدأ النسبية الزمانية من أجل أخذ العذر لنقادنا المتقدمين، ويمكننا القول: بأن جدلية (اللفظ والمعنى) وما أثارته من لغط معرفي، وأسألته من مداد كانت الباكورة الأولى لظهور وعي نقدي بمفهوم النص في تراثنا النقدي القديم، مع أن وعيهم هذا كان مشوها بفعل حصول جدل واختلاف حول طبيعة النص، ومستويات تحقيقه، بين من يرى الأولوية للجانب المادي، المحسوس من النص: (أنصار اللفظ)، وبين من ينتصر للجانب الذهني المجرد من النص: (أنصار المعنى)، وفي هذا السياق نجد الجاحظ يلح على ضرورة التفريق بين طرفي المعادلة النصية، اللذين هما اللفظ والمعنى، إذ يقول: "اعلم - حفظك الله - أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة، معدودة، ومحصلة محدودة"⁷، غير أن هذه التفريق الجاحظي بين اللفظ والمعنى لم يصل عند أبي عثمان مرحلة القطيعة، بل على العكس من ذلك، إذ نجده يؤكد على حتمية المصالحة بين

⁵ - الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، الناشر مصطفى البابي، الحلبي، ط: 2، 1965 م، ج: 1، ص: 47.

⁶ - أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، للنشر والتوزيع، القاهرة، د ت، ص: 78.

⁷ - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة، ط 6، 1968 م، ج 1، ص: 76.

اللفظ والمعنى، إذ يقول: "وقال بعضهم - وهو من أحسن ما اجتبيناه - لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة، حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"⁸ وبغض النظر عن خصومتهم النقدية التي كادت تعصف بالماهية النصية من أساسها فإن هذه الخصومة النقدية تبقى مظهرا من مظاهر الإجابة النقدية عن مفهوم النص، وقد تميزت هذه الرؤية التراثية بوجود آراء ونظرات ثاقبة، استطاعت أن تتجاوز المأزق النقدي المترتب على الفصل التعسفي بين طرفي النص: (اللفظ والمعنى)، ومن أهم هذه النظريات وأكثرها جدارة بالتوقف والتسجيل نظرية النظم الجرجانية، ومكمن القوة والتماسك في نظرية الجرجاني هذه: أنها استطاعت أن تقدم مقترحا مفهوما للنص يتجاوز مبدأ القطيعة بين مكونيه: (اللفظ والمعنى)، بل إنه اقترح صيغة تشاركية بينهما على أساس أن الألفاظ أوعية للمعاني و بهذا أحدث ألفة بين اللفظ والمعنى⁹ ممثلة في نظرية (النظم)، إن إقرارنا بأن الرؤية التراثية لمفهوم النص لم تقدم تصورا متكاملا عن مفهوم النص لا يجعلنا نهمل الجوانب المتماسكة الرائدة فهذه الرؤية ممثلة في النظريتين الجاحظية والجرجانية اللتين كادتتا تمسكان عصا النص من منتصفها وتحددان الماهية النصية تحديدا عبر عنه الجاحظ بمصطلح (البيان)، الذي شرحه بقوله: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة، كائنا ما كان ذلك البيان"¹⁰ ملخصا عناصر هذه الماهية في إدراكه العميق لمختلف مكونات البناء النصي، فللمعنى الشريف يستدعي اللفظ الشريف ضرورة، على أن يراعي مع ذلك مقتضيات المقام، إذ يقول: "ومن أراغ معنى كريما، فليلتبس له لفظا كريما، فإن المعنى الشريف للفظ الشريف"¹¹، فهذه المقولة جامعة بين الصفات الذاتية المنتمية لعوالم الإلهام، وبين المهارات المكتسبة بطول التجربة، ويمكننا إجمال المعالم الكبرى للرؤية الجاحظية لمفهوم النص في النقاط التالية:

1 - السعي الحثيث لربط الماهية النصية بالكتابة، على اعتبار أن التحقق النصي يرتبط ارتباطا وجوديا بالتدوين، فبذلك تحقق الأمة هويتها الحضارية، ويجدر بنا الوقوف هنا عند عبارته المتقدمة: "ولولا الكتب المدونة، والأخبار المخلدة، والحكم المخطوطة، التي تحصن الحساب، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذاكرة"¹².

⁸ - الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص: 115.

⁹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، الناشر مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، د ت، ص: 52.

¹⁰ - الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص: 76.

¹¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص: 136.

¹² - الجاحظ، الحيوان، تحقيق، مرجع سابق، ج: 1، ص: 47.

2- إقامة التقابل بين النطق الشفوي الخارج عن حدود الدائرة النصية وبين الكتابة المندرجة ضمنها.

3- القدرة على فهم طبيعة الماهية النصية، والفصل بينها وبين التحقق الأدبي، وهو ما تجلى في قدرته على التمييز بين الجوانب المكونة للنص في بعده المادي: (الألفاظ) والأبعاد غير الذهنية غير المحسوسة: (المعاني)، معتبرا أن المعاني داخلية ضمن دائرة المشترك البشري العام، بينما الألفاظ سمة فردية يتفاوت البشر في مستويات تأديتها، وهي مكمّن الريادة النصية والتفوق الفني.

4- الإقرار بأن الماهية النصية مع أنها تظل ماهية لغوية بالدرجة الأولى إلا أنها قادرة على الجمع بين العناصر اللغوية ذات المنحى المادي كالألفاظ، والعناصر اللغوية ذات المنحى التجريدي كالمعاني، فهما معا يتشكل التناسق اللغوي، وبهذا يكون الجاحظ قد قدم لنا نظرية نقدية متكاملة، شأنه في ذلك شأن عبد القاهر الجرجاني الذي استطاع هو الآخر أن يبين مظاهر التصالح بين مكوني النص: (اللفظ والمعنى) شارحا ذلك بقوله: (إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها تتبع المعاني في موضعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه يكون مثله أولا في النظام)، فالإمام الجرجاني من خلال هذه المقولة يحدثنا عن العلاقة الوثيقة بين دال النص ومدلول بوعي لا يكاد يختلف عن مضامين الدرس اللساني المعاصر خصوصا ما تعلق منه بالتفريق بين الوجهة المادية للنص: اللفظ، والوجهة الذهنية العميقة له: المدلول أو المعنى، ويظهر لنا حجم الارتباط الوثيق بين دال النص ومدلوله عند الجرجاني في تأكيده على أن: (العلم بمواقع المعاني في النفس: علم بمواقع الألفاظ الدالة في النطق¹³)، وإذا كان الجاحظ والجرجاني قد أmapا اللثام عن معالم رؤيتيهما، فإن غيرهم من قدامى النقاد لم يتبنوا ذات المسلك، فكان حديثهم عن مفهوم النص حديثا غامضا، ليس بمقدور غير المتأملين تلمسه، ومرد هذا الغموض أنهم لم يتحدثوا عن مفهوم النصية إلا في سياق حديثهم عن مفهوم الأدبية، في إطار سعي هؤلاء النقاد للتفريق بين قطبي الأدبية المتداخلين: (الشعر والنثر) على أساس أن التناسق اللغوي، الذي هو من محددات النص، يعتبر صفة جامعة لهذين القطبين، حيث إن الأدبية تمثل حالة استثنائية: ويمثلها الشعر، بينما النصية إطار عام شامل، ويمثلون له بالنثر، ولعل أهم محددات النصية في المفهوم النقدي التراث هو الطابع البنائي والنسقي المحقق لمبدأ: الانتظام اللغوي إضافة لنظرة النقاد القدامى المزدوجة لمفهوم النصية، وهي نظرة تدخل في حساباتها المنهجية وجود نمطين من أنماط الوجود النصي، أحدهما نثري عام، بينما الثاني شعري خاص وبهذا يمكننا إجمال أهم محددات النصية في النظرية النقدية التراثية فيما يلي:

¹³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص: 54.

1- الانتظام اللغوي: وهو ما يعبرون عنه بمصطلح البيان كما هو الحال عند الجاحظ أو بالنظم كما نجد عند الجرجاني.

2- الأثر النصي: وقد استدعى هذا المحدد النصي منهم إدخال القارئ في العملية النصية.

3- اعترافهم الضمني ببنائية النص وقدرته على الجمع بين العناصر المادية: (الألفاظ) والعناصر التجريدية: المعاني، وهو ما تجلى في تأكيدهم على الطابع النسقي للنص، وعلى امتلاكه: نظاما لغويا خاصا به.

4- قدرتهم على تقديم تصور محدد للماهية النصية بحيث لم يهملوا أي جانب من جوانب النص أو مكوناته، أو مرجعياته الذهنية.

5- سعيهم نحو حصر الماهية النصية في الكلام المكتوب والخروج على مبدأ الشفوية، وقد كان الجاحظ أول من سعى وأسس لهذه النزعة المفاهيمية، حيث تقدمت معنا عبارته السائرة: (لولا الكتب المدونة والأخبار المخدلة لبطل أكثر العلم).

6- أنهم استطاعوا تقديم رؤية نقدية حاولت تجاوز التفسيرات الأحادية، متجهة صوب رحابة الوعي الشامل.

7- أن حديثهم عن مفهوم النص قد تميز بوجود غموض مصطلح يتمثل في تجنبهم استخدام مصطلح: النص، بل إنهم اتخذوا للتعبير عنه غطاء مصطلحيا.

2. مظاهر القطيعة المعرفية في الرؤية النقدية المعاصرة لمفهوم النص:

1.2 مفهوم النص عند التيار البنيوي:

إن تتبع مفهوم النص في الرؤية البنيوية يجعلنا نخلص الوجهة المنهجية للقرن العشرين مع ظهور إرهابات الفكر البنيوي الذي كان له الفضل في التناول الجاد لمفهوم النص، وأن يتمحور تركيزنا على رائد هذا التيار الناقد الفرنسي: رولان بارت مستقرئين جل مؤلفاته النقدية، سعيا منا لتحديد أهم المعالم والمحددات التي على أساسها يتحدد مفهوم النص عنده، ولعل أول أمر يجب التنبه له هو أن تحديد هذا المفهوم في العرف البارتي يمر من بوابة التفريق بين مفهوم اللسان باعتباره: كلية عامة، وبنية زمانية، مطلقة وبين مفهوم الكتابة النص: باعتباره ممارسة لغوية آنية¹⁴ وبناء على هذا فإن الكتابة - النص عند بارت هي: نظام حقيقي ومستقل، يتنامى حول العمل الأدبي بطريقة

¹⁴ - رولان بارت: درجة الصفر في الكتابة، ترجمة محمد نديم خشفة، منشورات مركز الإنماء الحضاري، الأعمال الكاملة، علي مولا، ط 1، 2002م، ص: 16.

أوديبية¹⁵، ولعل مربط الفرس في تحديد نظرية النص البارتية هو تلك المقولة الثورية التي تخرج المؤلف من المعادلة النصية وتفترض موته، حيث إن بارت قد أكد مرارا على ضرورة إخراج الكاتب من المعادلة النصية، إذ يقول: "فشعريه مالا رميه، إنما تقوم على حذف المؤلف لمصلحة الكتابة، ويكون هذا كما سنرى" بإعطاء القارئ مكان المؤلف¹⁶ "مؤكدًا على جوهرية دور القارئ في العملية النصية، في مقابل تنحية المؤلف، لأنه سابق على النص وجودا"¹⁷، وهذا ما يفصله لنا بارت بقوله: "فموت الكاتب هو الثمن الذي تتطلبه ولادة القراءة"¹⁸، ففكرة مركزية القارئ عند رولان بارت ناشئة عن ردة فعل عنيفة على المناهج التاريخية التي تربط المعاني النصية بأحداث التاريخية، كما أن مقولة: (موت المؤلف) التي روج لها بارت قد تكون انفعالا وتقليدا لبعض النظريات الغربية الساعية إلى تجاوز ما ليس ماثلا أو مشاهدا، وهو ما يفضي لتنحية المؤلف، وتقتصر هذه المقولة تحويل النص من أدناه إلى أعلاه، بحيث يصنع النص ويقرأ بطريقة تجعل المؤلف غائبا عنه في كل المستويات¹⁹، ووعيا بما سبق يتضح لنا كيف أن بارت استطاع أن يعدل الصورة النمطية للنص المستقرة في الأذهان قديما، فالنص ليس سطرا من الكلمات ينتج عنه معنى أحادي أو لاهوتي، ولكنه فضاء لأبعاد متعددة، وفي مقابل إخراج المؤلف من اللعبة النصية فإن بارت يحتفي بالقارئ ويدخله في صميم النشاط النصي، فينبوع النص الحقيقي يكمن في القراءة التي هي من نشاط المتلقي، فهو الكائن الكلي للكتابة²⁰، وعلى هذا فإن وحدة النص في العرف البارتية ليست نابعة في أصله، الذي مصدره المؤلف، وإنما وحدته كامنة في المقصد الذي يتجه إليه، وهو من صنع القارئ، فغياب المؤلف مسألة جوهرية في التصور البارتية لمفهوم النص، إذ يقول: "لقد مات المؤلف بوصفه مؤسسة، واختفى شخصه المدني، والانفعالي والمكون للسيرة، كما أن ملكيته قد انتهت"²¹ وقد استطاع بارت أن يقدم لنا تعريفا خاصا للنص، اعتمد فيه على المنحى المعجمي: الاشتقائي، منطلقا من الأصول اللغوية: اللاتينية لكلمة: (TAXE) المحيلة لمعان عديدة من قبيل النسج الذي هو البناء المحكم الذي تتضافر كل العناصر المكونة له لتشكيل منه بنية متناسقة، ذلك أن قراءة متأنية لمؤلفات بارت كفيلة بأن تجعلنا نقف عند قوله: "وكما تقول نظرية النص: لقد تمت إعادة توزيع اللغة، وإن إعادة التوزيع هذه إنما تتم بالقطيعة دائما، وإنه

¹⁵ - المرجع نفسه، ص: 111.

¹⁶ - رولان بارت: نقد وحقيقة، ترجمة: د: منذر عياشي، منشورات مركز الإنماء الحضاري، 1994م باتفاق خاص مع دارلوسوي في باريس،

ص: 17.

¹⁷ - رولان بارت، نقد وحقيقة، مرجع سابق، ص: 20.

¹⁸ - المرجع نفسه، ص: 25.

¹⁹ - المرجع نفسه، ص: 20.

²⁰ - المرجع نفسه، ص: 21-24.

²¹ - رولان بارت، لذة النص، ترجمة: د: منذر عياشي، منشورات مركز الإنماء الحضاري، باتفاق خاص مع دارلوسوي في باريس، ط 1،

1992م، ص: 56.

ليترسم نتيجة لهذا جانبان: جانب حكيم، موافق، والمقصد منه هو نسج اللغة في حالتها المقننة²² وإذا تأملنا هذه المحددات الموجودة بين أيدينا اتضح لنا أن النصية في العرف البارتى مفهوم لغوي يحتاج لمقومات، بها يتحقق، ومنها يتجسد وأن من أهم هذه المقومات عنده الوجود الحسي المحقق للثبات والضامن للكينونة والوجود، والاستقلالية، إضافة لمقوم نصي لا يقل أهمية عن سابقه هو مقوم الكتابة: فهي تحقق النص صفتي: الأزلية والخلود، وهو ما نشأ عنه استقرار مفاهيمي، بناء على أن النص عند بارت بنية لغوية، مفرقا هنا بين مفهوم النص ومفهوم الجملة، إذ يقول " فالنص لم يعد يتخذ الجملة نموذجا، فلقد غدا غالبا دفقا لغويا من الكلمات، وشريطا تحتيا للغة "²³ تنبني وجوديا على مجموعة من الثنائيات المتقابلة: انفتاحا أو انغلاقا واتجاها أو انكفاء، كما أن الإقرار ببنائية النص تستوجب وجود نسقية، بها يحقق انضباطه اللغوي الضروري، وإذا أمعنا النظر في معالم الرؤية البارتية فإننا سندرك أن أهم ما ميزها هو نزعتها الثورية، فيها استطاعت تنكب الطرق المألوفة، والقواعد الثابتة، لتضع لنفسها خطأ مفهوما يختص بها، ولعل هذا ما حمل (بارت) على أن يقدم تعريفا مميزا للنص، كان فيه أسيرا لهذا النفس الثوري، محاولا في ذات الوقت تجاوز الأطر المرجعية السائدة، على اعتبار أن النص كائن لغوي، وهو ما يمكن أن نعتمد فيه على قوله " فتغثغة النص ليست سوى تغثغة اللغة "²⁴ وأن عدم قدرة هذا الكائن اللغوي على تحقيق صفة الأدبية المتأتية من لغته الاستعارية ووضعه الفني لا يخرجها عن دائرة النصية، وبهذا ندرك أن بارت يفرق بين مفهومي: (النصية والأدبية)، انطلاقا من حقيقة هامة مفادها: أن كل نظام لغوي بإمكانه أن يحقق النصية بانتظامه اللغوي ونسقيته واستقلاله تركيبيا ودلالة، بينما الأدبية تبدو مفهوما صعب التحقق، نظرا لكونها تتطلب جمالية وانزياحا عن مستويات التعبير المباشر، إذ نراه يقول: " ومعنى ذلك أن اللغة مثل الطبيعة، تمر بمجملها عبر كلام الكاتب، واللسان بالنسبة إليه حرفيا، إنها مناخ الفعل، وتعريف الممكن وانتظاره، وهي الملكية المشاعة بين الناس، وليس بين الكتاب، وهي تبقى بعيدة عن طقسية الآداب... "²⁵، ويقودنا هذا الاستنتاج لأن نقرب أن كل نص أدبي جامع بطبيعته التركيبية بين صفتي: النصية والأدبية معا، بحيث يغدو مفهوم النصية مفهوما مطلقا: يشمل مختلف مظاهر النشاط اللغوي التعبيري القادرة على نقل الأفكار والمشاعر والعواطف، بغض النظر عن طريقة تجسيد ذلك تعبيرا، وهنا نجد بارت يوسع من دائرة فهمنا للنص، ليشمل مختلف التعبيرات الفنية، إذ يقول: " إن بعضهم يريد نصا: (فنا، لوحة) من غير ظل، ومقطوعا عن الإيديولوجيا المهيمنة، ولكن هذا يدل على

²² - رولان بارت، لذة النص، مرجع سابق، ص: 28.

²³ - المرجع نفسه، ص: 30.

²⁴ - رولان بارت، لذة النص، مرجع سابق، ص: 26.

²⁵ - رولان بارت: درجة الصفر في الكتابة، مرجع سابق، ص: 16.

أنهم يريدون نصا لا خصوبة فيه ولا إنتاجية"²⁶ فهو هنا يرى مفهوم النص شاملا للفن واللوحه. وبهذا يفتح الباب لدخول كل الأنماط التعبيرية ضمن دائرة النصية المتسعة، إن وقفة فاحصة للإرث النقدي البنيوي في تحققه البارتي كفيلا بأن تكشف لنا أن أهم محددات النص عند بارت هو المحدد اللغوي: فاللغة عنصر أساسي من عناصر البناء النصي عنده، بل إن هذا المحدد يعتبر أكثر جوانب النص بروزا وقدرة على الظهور، وذلك عائد إلى أن المحدد اللغوي بطبيعته له أثر مادي: ملموس، وهو ما قاد بارت للخروج عن أسر النظرية التقليدية القائلة بوجود ترادف بين مفهوم النص ومفهوم الجملة، الأمر الذي رأى فيه بارت تقييدا لحركية النص، على أساس أن النقد يكون على شكل تدفق لغوي من الكلمات، أو شريطا تحتيا للغة²⁷، وقد استطاع بارت التفريق بين المستويات المتعددة لقراءة النص، إذ يقول: "وينتج عن هذا نظامان للقراءة: ثمة قراءة تتجه مباشرة إلى مفاصل القصة، وهذه القراءة تهتم بامتداد النص وتجهل ألعاب اللغة، وثمة قراءة لا تعطي شيئا، إنها تزن النص فتلتصق به، وتقرأه حرفيا إذا صح أن نقول هذا، في نقطة من نقاطه"²⁸ ومن أبرز مقومات النص التي يقترحها رولان بارت، أن الوجود النصي قائم على مبدأ: الحرارة النصية إذ يقول "إن حرارة النص والتي من غيرها لا يوجد نص، في النتيجة ستكون إرادته في المتعة حيث يفرض في الطلب"²⁹ هي ملك ذاتي له، فهي ترتبط ببنائه الداخلي ارتباطا عضويا، وليست أمرا خارجا عنه أو مفروضا عليه، فبارت يرفض أي صراع نسقي خارج عن ماهية النص الداخلية، لسبب بسيط هو أن لدى كل نص قدرة مطلقة على اختراع نسقيته الخاصة، ولهذا فإن سرقة النص بالنسبة له هو كونه يمثل فضاء نادرا من فضاءات اللغة، لكن لا بد أيضا من عدم التنكر للجانب غير المحسوس من النص، المتعلق بآثره، وهو ما اصطلاح صاحبنا على تسميته: (النص المتعة)³⁰، ومن ثم فإن بارت يرى ضرورة التفريق بين النص باعتباره بنية لغوية: لها قوانينها الداخلية، وبين النص في حالات تمثله وقراءته، وبناء على هذا فإن النص شيء، وقراءته شيء آخر، ولكي يحقق النص مبدأ النسقية فإن عليه إحداث انسجام واتساق دلاليين بين معانيه وجمله والقضايا التي يطرحها، مع المواءمة بين وجهتيه المنظورة والمستكنة، دون أن يتنكر للجانب المادي المحسوس الذي اصطلاح بارت على تسميته: (الجسد النصي)، خلافا للنص الظاهر، الذي هو من صنع النحاة، والمفسرين، والنقاد، وفقهاء اللغة، إذ يقول بارت "وإن هذا الجسد الذي يراه العلم، ويتكلم عنه، لهو نص النحاة، والنقاد، والمفسرين، وفقهاء اللغة، إنه النص الظاهر، ولكن لدينا أيضا: نص

²⁶ - رولان بارت، لذة النص، مرجع سابق، ص: 63-64.

²⁷ - رولان بارت، لذة النص، مرجع سابق، ص 28 - 29 - 30.

²⁸ - المرجع نفسه، ص: 36-37.

²⁹ - المرجع نفسه، ص: 39.

³⁰ - رولان بارت، لذة النص، مرجع سابق، ص: 41.

المتعة، وهو مصنوع فقط من العلاقات الجنسية، وهو جسد، لا تربطه بالأول أية صلة " ³¹، ومن أهم محددات أو مكونات النص عند رولان بارت مبدأ الإنتاجية ويعني هذا المبدأ وجود علاقة مرجعية تربط النص بالكون الأدبي كله، السابق عليه واللاحق معا، وقد فسر بارت الإنتاجية بأنها: إنتاجية ذات طابع لساني، تجعل بمقدور النص الوصول لنهايات القول الممكنة، فقد أكد بارت على هذه الإنتاجية، التي هي عنده ذات طابع لساني إذ يقول: "والنص حين يذهب إلى نهاية القول ضمن إنتاجية لسانية، لا تريد أن تختلط مع العلم " ³² ترتفع به لمستويات اللذة والمتعة، وبنفس المنطلق يمكننا أن نقر مع بارت بأن النص ذو طبيعة إنتاجية، حيث إن بارت قد ربط اللذة النصية بتحقيق هذه الإنتاجية، إذ يقول: "إن مكان اللذة النصية ليس في علاقة المحاكات والنموذج، ولكنه فقط في علاقة التغير والمحاكات، علاقة رغبة، وعلاقة إنتاج " ³³ وإذا أعدنا النظر في مجمل الآراء والتعريفات السابقة، فإننا سنتعرف على حقيقة هامة مفادها: أن جل الجهود النقدية الساعية لتعريف النص ووضعه في إطاره المفهومي الصحيح، كانت وفيه للإرث البارتي، وهو ما تجلّى في محاولتها لتوسيع مفهوم النص من جهة، وفي السعي للتفريق بين بنية النص وأثره أيضا، وإذا ما قدرلنا أن نقرأ بعض التعريفات المعاصرة للنص في ضوء علاقتها بالإرث البارتي فإننا واجدون فيها تأثيرا به إذ سنقف عند تعريف للدكتور عبد السلام المسدي حاول فيه أن ينظر للنص باعتباره هيكلا، وهنا يلوح لنا تأثيره بمفهوم الجسد النصي عند بارت ³⁴، فبالرغم من أن المسدي قد سعى لأن يتقمص في تعريفه الثوب الأسلوبي، إلا أن الظلال البارتية قد أظلت تعريفه المائل بين أيدينا، فمع أنه استبدل مصطلح: (الجسد) الذي هو مصطلح بنيوي صرف بمصطلح الهيكل، فإنه بقي وفيه للإرث البارتي، من خلال تأكيده على مبدأ: الانسجام الذي هو مبدأ بارتي أصيل.

وما دمنّا قد بسطنا القول في الحديث عن معالم الرؤية البارتية لمفهوم النص وأسلنا فيها المداد، فإن الحس المنهجي يفرض علينا أن نضرب عنها الذكر صفحا عن من أجل أن نخصص جانبا من الحديث للتعرف على مقومات النص ومفهومه داخل الفكر البنيوي الخارج عن عباءة بارت، من خلال الوقوف عند أهم الآراء البنيوية السويسرية، إضافة لشتات من الآراء الحرة الساعية لإعطاء مقترح مفهومي حول مفهوم النص ونظريته، وقد اعتمدنا لولوج العوالم السويسرية على استقراء للدكتور صلاح فضل يرى فيه: أن (ديوسوسير) يختلف في طرحه لمفهوم النص عن الطرح البارتي، حيث استطاع الدكتور صلاح فضل أن يقدم لنا رؤية متماسكة عن مفهوم النص عند (ديوسوسير)، مع أن

³¹ - المرجع نفسه، ص: 42.

³² - المرجع نفسه، ص: 82.

³³ - رولان بارت، لذة النص، مرجع سابق، ص: 97.

³⁴ - عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، منشورات الدار العربية للكتاب، تونس، ط 3، د ت ص: 104.

حسه التاريخي قد طغا على حسه النقدي، فرصد المسار التاريخي لمفهوم "النص"، بدءا بمرحلة النشأة والتخلق، مروراً بأطواره المختلفة، وانتهاء بالمستجدات الطارئة عليه، الأمر الذي قاده في النهاية لاستنتاج عبر عنه بقوله: "فما كان يسمى لغة عند ديوسوسير أصبح يسمى نظاما، وما كان يسمى كلاما يطلق عليه عملية، ويعتبر النص هو العملية"³⁵، وقد شرح الدكتور فضل الاستنتاج السابق من خلال تفصيله لحقيقة التداخل المفهومي داخل الرؤية النقدية المعاصرة بين مفهومي: الجملة والنص، مؤكداً في ذات الصدد أن هناك علاقة استبدالية، تكاد تصل لدى البعض حد القول بوجود تطابق بين المصطلحين، موضحاً أهم معالم استقراراته النقدية، حيث يقول: "إذ السياق – كما عرفه بعض الباحثين – كل مجموعة من الرموز المختلفة في الوظائف، وهي الأقل ثنائية، وتقوم بين أطرافها علاقة من التكيف المتبادل"³⁶، ونمضي مع الدكتور صلاح في استقراره لتطور مفهوم النص، لنقف على استقرار جديد له يرى فيه أن نظرية: (ديوسوسير) البنيوية تصنف "النص" باعتباره: مجموعة من الرموز اللغوية، فهو مكون عندها من مادة: "صور" وتعبير، وبهذا المنطلق فإننا نكون أمام عناصر أربعة مكونة لهذا النظام الرمزي وهي³⁷:

1 - مادة التعبير: وهي المادة الصوتية الأولية المنطوقة وإن كانت غير مقعدة.

2 - صورة التعبير: وهي مكونة من القواعد النحوية المنظمة للمادة المنطوقة أو المكتوبة.

3 - مادة المضمون: وهي العناصر الفكرية والعاطفية التي تتكون منها الدلالة.

4 - صورة المضمون: وهي التنظيم الشكلي للمدلولات.

2.2 مفهوم النص عند التيار التفكيكي: (السيمولوجي):

تقدم معنا في المبحث السابق أن ريادة رولان بارت للتيار البنيوي أمر مسلم به، وهي ريادة متأتية من غناء وتنوع الإسهام النقدي الذي قدمه بارت، أما بخصوص التيار التفكيكي فإن هذه الريادة كانت من نصيب الناقدة البلغارية: (جوليا كرسيفا)، التي استطاعت أن تجلى الرؤية التفكيكية لمفهوم النص، فهي ترى بأن النص بحكم كونه ملفوظاً إيديولوجياً، يتحدد بكونه جهازاً عبر لسانی، يعيد توزيع نظام اللسان، ويجمع بين البعد الإخباري، والخلفية الحوارية، ويرتبط بعلاقة قوية مع الملفوظات المتقدمة عليه، ولعل أهم المبادئ التي بشرت بها هذه الناقدة وعملت على تسويقها هو مبدأ: (الإنتاجية) الذي يتجلى عند جوليا فيما يلي:

³⁵ - صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، منشورات دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1968م، ص: 93.

³⁶ - صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، مرجع سابق، ص: 303.

³⁷ - المرجع نفسه، ص: 308.

- 1 - أن علاقة النص باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع: صدمة وبناء، ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية وليس من خلال المقولات اللسانية الخاصة، فالإنتاجية النصية هي إنتاجية تهادنية: إلغائية ذات صلة حميمية بالمتلقي³⁸.
- 2 - أنها ترحال للنصوص وتداخل بينها: ففي فضاء نصي معين تتقاطع وتتنافي ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى.
- 3 - أن مفهوم الإنتاجية عند جوليا مفهوم ذو صبغة ازدواجية وهو ما جعل هذه الإنتاجية مكونة من بعدين: أحدهما متعلق بعمل الكتابة (النص) بينما الثاني مرتبط بقراءة النص وتمثله، باعتباره جزءا من كيانه ووجوده وأثر النص، فالإنتاجية النصية هي عمل واستهلاك³⁹، وبهذا نكون أمام بناء نصي مركب، يشمل القراءة والكتابة والإنتاج والاستهلاك والفعل وردة الفعل، وإذا كانت نظرية بارت النبوية قد مثلت موردا معرفيا ونقديا استوحت كل تعريفات النص ذات النفس البنيوي واستقت منه فقد تكرر أيضا نفس الموقف مع جوليا، إذ إن جل تعريفات النص المستظلة بظلال الفكر التفكيكي لم تستطع الخروج عن عباءة جوليا، وتكمن هذه التبعية المدعاة في اعتماد جل النقاد التفكيكيين عليها في تعريفهم للنص واستنادهم على مبدأ: الإنتاجية، وهو مبدأ يدين في وجوده وظهوره للناقدة جوليا، ويقوم هذا المبدأ على فلسفة فنية تعتبر النص فعالية كتابية قائمة على مبدأ الإنتاج الذي هو شبكة من العلاقات النصية، لها أقطاب ثلاثة هي: الكاتب والقارئ والنص، ونحن في تتبعنا لمفهوم النص في العرف التفكيكي مضطرون لأن نتبنى رأيا تولد لدينا من خلال معايشة وقراءة بعض المؤلفات التفكيكية المهمة بمفهوم النص، يتمثل هذا الرأي في أن الإضافة التي قدمها هذا التيار تتجلى في استبدال مفهوم اللذة البارتية بمفهومي: (الإنتاجية والمغامرة) ذلك أن جوليا تعتبر النص نشاطا كتابيا هجينا، بمقدوره أن يجتمع فيه وينضوي تحته المؤلف والقارئ وأجزاء النص، ومع أن هذا الرأي يبقى مجرد اجتهاد شخصي، أنا أول من يعي مدى هشاشته، لكنه يبقى محاولة لرصد مظاهر التجديد داخل الفكر لتفكيكي، ومن أهم الإضافات والمساهمات المقدمة ملدن النظرية التفكيكية: قدرتها على توسيع مفهوم النص ليخرج عن كونه مجرد نشاط لغوي فردي، تكتبه ذات مبدعة، يمتلك مقومات الوجود النصي، ليتحول مع التيار التفكيكي إلى فعالية نصية ذات صبغة تشاركية تسعى للتأثير المتبادل وتنشد التفاعل، بحيث تحول دور القارئ من مرتبة التلقي النصي الباهت، إلى مساهم فعال في كتابة النص وصياغته.

³⁸ - جوليا كرسيفا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي ومراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، المغرب، د ت، ص 65.

³⁹ - جوليا كرسيفا، علم النص، مرجع سابق، ص 48 - 49.

وقد استطعنا أن نقدم رسدا استقرائيا حاولنا فيه أن نصوغ أهم التعريفات النقدية المعاصرة للنص، مجملين إياها فيما يلي:

1. أن النص كائن لغوي بالدرجة الأولى.
 2. أن النص يتطلب حيزا مكانيا وزمانيا لتحقيقه.
 3. أن لكل نص رسالة يسعى لتوصيلها.
- وإذا ما كتب لنا أن نقرأ التعريفات الآتية الذكر بعيون مفتوحة فسنجد أنها استطاعت أن تقدم لنا تصورا شبه شمولي عن مفهوم النص، لا يلغي أو يتنكر لأي من أبعاده المختلفة، سواء كانت لغوية: كلامية أم زمانية أو مكانية أو تنظيمية، أو كان هذا التحقق النصي مرتبطا بما هو خارج عن الماهية النصية الداخلية.

خاتمة:

بناء على ما سبق وتأسيسا عليه يحق لنا ونحن في مختتم هذا المبحث من الدراسة أن نقدم حصيلة إجمالية لأهم الأطر المفهومية، والمقومات النقدية، التي على أساسها يتحدد النص في العرفين البنيوي والتفكيكي معا، وهو ما سنجمله في النقاط الآتية:

أ: أن رولان بارت باعتباره الممثل الشرعي للتيار البنيوي يرى أن الماهية النصية كائن هجين، يجمع بين الهيكل المادي بتحقيقاتها لصوتية، والتركيبية، والدلالية، وهو هنا يحيلنا للجانب المحسوس المادي من النص، والذي كثيرا ما انتصر له بارت، وإلى الجانب الذهني المجرد: وهو ما اصطلح عليه بارت: (نصباللذة).

ب: أن بارت استطاع التفريق بين مفهومي: (النصية والأدبية) على أساس أن النصية إطار عام لكل الممارسة الإنسانية ذات المغزى التعبيري، سواء كانت منطوقة، أو مكتوبة، أو عملا موسيقيا، بينما الأدبية: مفهوم ضيق يتطلب الارتفاع عن درجة الصفر في الكتابة.

ج: أن الناقدة جوليا اكريستيفا استطاعت توسيع مفهوم النص لتدخل القارئ في صميمه من خلال ربط مفهوم النص بثنائيتي: (الإنتاج والاستهلاك)، إلا أن تحديد مفهوم الإنتاجية النصية الذي حملت جوليا لواء التبشير به، لم يتم يتحدد بالشكل المطلوب، ما دام أن الإنتاجية النصية تظل ممارسة كتابية غير قابلة للتحديد.

د: أن الناقدة جوليا لم تحدد مفهوم المغامرة الذي سعت للتسويق له، نظرا لأنه لم يتحقق له التحمض المفهومي المنشود، ويقودنا استنتاجنا ونحن في مختتم هذا المحور لأن نرجع الطرف، ونعيد

النظر في مجل الآراء السابقة، سعيا منا لاستخراج جملة المبادئ المكونة للنظريتين البنيوية والتفكيكية في نظرتيهما للنص، إذ يمكن إجمال أهم المبادئ المشكلة لنظرتيهما للنص في المبادئ الآتية:

1. مبدأ البنائية فالنص هو نسيج لغوي توليدي: يولد وينمو، ويتطور، ويتفاعل في سياق ذاتي داخلي.
2. مبدأ الاستقلالية: وهي التي تحدد مستويات انفتاحه وانغلاقه حسب ما تمليه هويته الخاصة به.
3. مبدأ المادية: وهو من أهم المبادئ التي كانت محل إجماع بين المذهبين البنيوي والتفكيكي، وعبر عنه بارت: بالصناعة والنسيج، وعبرت عنه جولي أكريستيفا بالإنتاجية، وقد ذكر بارت وأكد على أن نظرية النص تميل بطبيعتها للمادية المتجذرة فيها، وهذا ما يفسر لنا سبب تجذر مبدأ المادية في الأطروحات البارتية واهتمامه الزائد بدوال النص على حساب مدلولاته، ولم يكن بارت بدعا في احتفائه بدوال النص، بل إن كل التعريفات السابقة تجمع على هذا المبدأ، معتبرة أن لكل نص مكونا ماديا حيويا يجسده، سواء كان هذا التجسيد نطقيا أو كتابيا، أو سلوكيا، فالنص بمفهومه الواسع يتطلب حيزا مكانيا في حال كتابته وأمدا هوائيا في حال نطقه وامتدادا زمنيا أو أن تحققه.
4. مبدأ النسقية والانتظام: حيث إن كل التعريفات والآراء السابقة المهتمة بمفهوم النص تجمع أن لكل نص نسقية وانتظاما: يميزانه، بهما يتحدد، وبواسطتهما يتحقق، وعلى ضوءهما ينظم علاقاته الداخلية، ودرجات انفتاحه وانغلاقه على العالم الخارجي.

المصادر والمراجع:

1. ابن منظور، لسان العرب ، منشورات دارصادق ، بيروت ، ط3 ، 1414 هـ .
2. إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط ، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، بدون تاريخ نشر.
3. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6، 1968م
4. الزمخشري، أساس البلاغة، منشورات دار الفكر، بيروت، 1994 م .
5. جوليا أكريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، منشورات دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، بدون تاريخ نشر.
6. رولان بارت، الدرجة في الكتابة، ترجمة محمد نديم خشفة، منشورات مركز الإنماء الحضاري، الأعمال الكاملة، علي مولا، ط1 2002 م .
7. رولان بارت ، نقد وحقيقة ، ترجمة منذر عياشي ، منشورات مركز الإنماء الحضاري باتفاق خاص مع دار لوسوي بباريس، 199 م .

8. رولان بارت، لذة النص، ترجمة منذر عياشي، منشورات مركز الإنماء الحضاري باتفاق خاص مع دارلوسوي بباريس، ط1 ، 1992م .
9. صلاح فضل ، نظرية البنائية في النقد الأدبي ، منشورات دارالشروق ، القاهرة، ط1 ، 1968 م
10. عبد السلام لمسدي ، الأسلوبية والأسلوب، منشورات الدار العربية للكتاب، تونس، بدون تاريخ نشر.
11. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، منشورات مكتبة الخانجي ، بدون تاريخ نشر.
12. مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقوسي، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8 ، 2005 م .